(ترقّـــب صاخـــب)

جلال نعيم
لوس أنجلس / كاليفورنيا

سكنت أعماقه أخيراً فانساق مع الليل يُقلّب هدأته التي لم يكن يقطعها غير همس بعيد ، منبثق من عُري صحراءٍ ما راحت تغرز خناجر من رملٍ في صدور أبنائها . أنصت لحفيف القصب المتسربل في ثنايا روحه فشعر بالاسترخاء يلف عضلات جمجمته التي امضها القلق الغائم والانتظار المرّ لكائنات تهمي من ابواب السماء لتنصت لصراخه وعويله والهمس المتكاثف المنبثق من جهاز التسجيل الذي يمكث غير بعيد عن سرير إرتمت عليه كومة عظام ، يجاهد كيس متغضن من الجلد على جمع شتاتها وتتخللها روح والده الذي لا يدري احيانا كيف يقوى على إرتكاب ذبذبات أنفاسه التي تفرّ مفزوعة من أقفاص صدره المسكونة بتواريخ وجوه وحروب يلم بكل تفاصيلها ، رغم انه لم يشهد او يخوض غمار اي منها ولكنها تترسّب فيه عميقا ، وكثيرا ما كان يُصوّرها ويتحدث عنها وكانه سديم غريب يتعالى في اطراف سماوات اخرى ليدون انفاس المجازر ويجمع الشظايا المتطافرة بعيدا ثم يمطرها على جلاسه وهو يلهث مستمتعا بألق تاثيرها عليهم ، بينما تلمع عيناه ويغمرهما وهج صاخب يفضح بعضا من أسرار الروح الكامنة في كومة عظام تنهض من وِيء إنكساراتها القديمة امام وجوه المحققين وآلآت الموت التي طالما إخترقت كيانه في محاولة منها لافتضاض صلادة احشائه وما تكورّ عميقا في كوّة كبريائه ، فراحت ، بهول قسوتها ، تغذّي اللهب المتكاثف في روحه ومواطن جسده .

إستيقظت العظام المحفورة في عمق السرير حتى بتّ تسمع قرقعتها ، انه الفجر الذي ينبعث معه فجاة ، ينهض بكامل هيبته ، يسحل كيانه راسما خيطا طيفيا أخضر سيكون من الصعب محوه او تغيير مساراته . يشمّر عن ساعديه ، يتجشأ ، يمخط انفه امام المغسلة ، فتعجَب : كيف يتأتى لهذاالرجل الذي ما ان إعتلى منبر المجلس قبل ساعات وما أن أشهر جسده المُتعالي في الطرف الآخر من القاعة حتّى تملك الأسماع والأبصار وحشد إهتمام الجمع المتكاثف في القاعة الى صوته ووجهه والتماعة عينيه ، الرجل نفسه الذي ما أن شرع بقراءة المآسي المحفورة على جدران روحه ، حتى سحب الجمع الى ملكوت آخر ترتمي في أفقه صحارٍ مفعمة برائحة الخديعة ، وتشهد تطواف الرؤوس المعلقة منذ ألف عام ، تعجب إذ تكتشف مرة اخرى بان هذا الرجل هو نفسه الذي يتمخط ويتبرز ويرتجف جسده من الضحك أحياناً وكأنه مثل أي واحدٍ منّا أو مثلنا تماما ..!

ما عدت تعرف ما يؤرقك الليلة وماالذي يبثّ في روحك جمرات القلق إلى درجة أن تحاول النأي بخيالك عن رؤية اجزاء اللوحة الغامضة التي تشكلت في رأسك فأيقظت إحساساً بالسأم فيك .. أهو ألسأم؟ إنك لاتدري حتى اللحظة ما الذي يبعث فيك هذا الهاجس المتكرر من إنك تحيا يوما إستثنائيا ستبقى تتذكره بمجمل تفاصيله رغم تغير الوجوه والمدن والاماكن ، وحتى لو إمتد بك العمر آلاف الاعوام .

تحاول جمع شتاتك مرة أخرى فيضاء في ذهنك فضاء السقوف المُطعّمة بالكريستال والمرايا والنقوش الاسلامية التي اثارت اهتمامك اليوم حالما وطأت اقدامك ديوان الحسينية حيث فوجئت باحتشاد الاجساد ولهفة الوجوه الشاخصة الى المجلس الذي تربع عليه الجسد المتهالك ، الذي رغم انه يقاسمك البيت والخبز ومحبة العجوز نفسها الا انكما عشتما متباعدين حتى انك تجهل تأثيره .. وما أثار انتباهك الممزوج بالنفور إشارة الآخرين اليك وترديدهم المتكرر " انه ابن زاير حسون " وسرعان ما يداخلك احساس بالمصادرة ، إذ إنهم يعجزون عن الاشارة اليك باسمك ، وتحيل ذلك الى غرامهم بالبطل والاسطورة وما يتعلق بهما وما يقف بينهما ، وهو ماإعتدت مواجهته بالغثيان .. ولكنك اليوم وللمرة الاولى منذ اعوام طويلة تتسلل الى عوالم ابيك الغامضة ، في محاولة لاكتشاف بعض من أسراره علك تصل الى تحديد منابع الطاقة الكامنة فيه والتي يعوزك منها الكثير من اجل تبديد دواماتك اليومية بحثا عن معنى او رغبة في الانعتاق .. وماكنت بانتظار دعوة امك لمرافقته الى "الحسينية" في اول ايام عاشوراء قدر ما كانت رغبتك الطفلية بالذهاب الى هناك ، تحبّ الأجواء والطقوس ولكنك تعجز عن التفاعل مع مضامينها وما يقف وراءها . ربما هو عجزك الداخلي عن الانسياق وراء المجاميع ، او رؤيتك الأخرى التي تقف بك بعيدا .. وهي محنتك ، هي ألأخرى ، وألتي ستبقى معلقة من دون نتيجة . هكذا يجرفك ألالا يقين من ياقتك بينما ترى "ألمحبين" ينصتون بانفعال الى صوته المتهدج العميق والذي كان يطوف أرجاء الدنيا مرددا فصول حكاية طالما فاضت الدموع في حضرة ذكراها . كان للوجوه القانطة والأرواح المصغية أثر عميق ترك ظلالاً متداخلة في أعماقك . فقد كانت العيون تنبىء بأن ما يجري الآن إنما هو استمرار لها ، متداخل في فصولها ، وما روايتها واعادة روايتها وحجم التعاطف معها غير اثبات لما يجري لهذه الكائنات المستضعفة الصلبة التي لا تقوى على الجلوس بانتظار موتها صامتة .. بينما راح والدك المتربع في وسط المجلس يستجمع وسائله وقواه من اجل ان يصوغ مفردات حكايته ملقيا على التاريخ روحه ، وعلى الحكاية فصول سيرته المفرطة في ذاتيتها ومأساويتها حتى بتّ تسمع لسع السياط على ظهره وإصطفاق الهراوات على رأسه وكتفيه في سراديب الموت المبثوثة في رحم الارض بعد حملات ٧٩ و ١٩٨٢ . كنت تنظر في عينيه وهما تمخران عباب التماعاتهما فتوقن بانه انما يقرأسطور المأساة لمدونة فيه وفيك وفي قوافل المطرودين والمطاردين والباحثين عن خلاص . كان يقرأ التاريخ المكتوب في عيون الاحياء وفي رماد الاجساد المتروكة في عري الحروب المتكاثفة في سماوات هذه المدينة أو تلك . كان يحاول نفي الموت الحاضر بـ"موت" اكثر اشراقا ، اكثر قربا والتصاقا من حيوات سحقتها السرفات منذ قرون توغل في شراستها وساديتها .

في تلك اللحظة بالضبط ، شعرت لأول مرة ، ومنذ سنوات بعيدة بانك بتّ قريبا منه حد الالتصاق ، حد التماهي ملغيا المسافة التي شكلتها الاعوام بينكما دفعة واحدة والى الابد ، فها انت تدير دفة مشاعرك تجاهه في لحظة انبثاق غريبة . تشعر بعذوبة انفاسه ، طيبتها ، تشعر بعمق أحزانه ، طقوسه وأسباب تمسكه بها . الا انك حتى اللحظة لاتعرف ما يؤرقك الليلة ، ثمة شيء غامض ومخيف يجوس اطراف المكان ويترسبّ في ثمالة قلبك ، يملأه بالوجيف المرّ والترقّب الصاخب ، انتظار مريب يمضك الى أن رحت تراقب العجوز ، تعد انفاسه وتجشؤاته الصباحية المكررة ، بحثا عن منأى لروحك القلقة التي التي تسكنها هواجس هذا اليوم الاستثنائي الذي سيثبت بذاكرتك ولن تستطيع الفكاك منه طوال الاعوام والمدن والوجوه التي ستراها ، وسترطب شفتيك باجترار مرارات الحديث عنها دائما وابدا دون ان تفقد شيئا من طعمها المغمس بلذة ماسوشية تترسب فيك بفعل الاعتياد وتتسلل اليك من جهاز التسجيل الذي ادمن النواح حتى انك ستشهد في هذه الايام مالن تشهده في الغرف المقفلة الغريبة وبين سواعد النساء البعيدات اللواتي لاتتقاطع في اعينهن خطوط الحزن الصحراوية القاسية ، والتي ترتسم كلوحات موت تجريدية في عيني امك التي شرعت الآن بتحضير الفطور له . حينذاك لا يصلك منه غير ترديد خافت لعبارات تمتلىء باله تشعر به قريبا ولايفصلك عنه سوى جدار لايبخل بترديد أصدائه .

يستنفر حواسك نبض مكتوم يولد ، يتجسد ، يتعالى ..تحسه يتقافز على سطح الغرفة ، تتلاحق انفاسك ، تقفز مذعورا فيدهمك نبض آخر ينفلت باتجاه باب البيت ثم يتعالى طرق محموم . تهرول نحو الباب متجاوزا ابيك السادر في اتحاده بالالوان . تلحقك امك بعينيها الملبدتين بالقلق :

(منو ؟)

يندلع صوتك قويا حائرا ، يحاول ان يخفي ذعره وتوسلاته الطاعنة في رجائها ..

(افتح انا المختار ..)

يتعالى طرق الاقدام على السقف والابواب فينزلق وجيف قلبك ليتسلل الى اصابعك وهي تدير القفل الذي ما ان تفتحه حتى تكتسح الاجساد المفتولة جسدك وتزيحه بعيدا في عمق الفسحة ، تنفض عن روحك خوفها وتسأل :

(من انتم ؟)

تعاجلك ضربة مباغتة على وجهك لتزيح جسدك المتعب بعيدا .الى اية هاوية يدفع بك فجر الصراخ هذا . اية كارثة .. اي كابوس ... أتكون هذيانات أرقك ..؟ كم تتمنى ذلك ..ماذا لوكان محض كابوس ؟! لكن الوجوه المتناسلة في أرجاء البيت لا تترك منفذا للشك ..بعضهم يهرول نازلا من السطح وآخرون يحيطون بالمكان وكأنهم في حرب او مصيبة أكبر . اي موت يفتح شدقيه لالتهامك ، او هو ماستتمناه فيما بعد ..

تحاول ان تصحو من ذهولك . تتمنى لو تتحرك او تخترق المكان الا ان الكتل المحتشدة كحلقات رعب تسور المسافة متحلقة حول العجوز الذي لم ينقطع عن ترتيل صلاته وهو بكامل هيبته ، هدوئه واتزانه ، ممسكا بلحظته .. لحظة الحقيقة التي يحياها ، والتي كان من الواضح ان لا احد بامكانه ردها او الالتفاف عليها وقد سورته ادوات الموت التي لا احد يعرف قدرها غيره .. همهم ناظرا الى السقف وما أن امسك باصابعه "تربة" كربلاء حتى انقضت الاجساد المتخمة بظلال الموت عليه وحملته بدشداته البيضاء الى خارج الدار ، غير عابئة بصراخ الام الذي ثقب السماء تاركا في أعماقك أصداءً لن تمحى .. هي نفسها أصداء تهدج صوتك في عاشوراء كل عام حتى لو كان ذلك في مقهى حيث تحدق صديقتك بشفتيك المرتجفتين وتعلن بأنك تبدو أكثر إشراقاً وانت تردد إسطورة الموت تلك وكأنها حدثت بالأمس في بلاد عشت فيها وتبدو عاجزا حتى عن تشغيل محركات الخيال فيها .. هكذا تطوي أحشاءك في صمت ، وتحاول أن تجد نقطة لم تبدأ منها قبل ..

عمّان ١٩٩٨

قصة

(سليـــل الـــرواة)

حامد فاضل

(كل شيء حاضر ،
وكل القرون هي هذا الحاضر)

اكتافيوباث

•الذي مضى، والذي يمضي،والآتي .. كل في خرج الراوي .. هلموا يا سادة،وأنصتوا إلى صوت الحكمة . أتحدث اليوم عن بلدة نزعت ثوب النهر، ولبست ثوب الصحراء، وأخرى شقت ثوب الصحراء، ولبست ثوب النهر .. اقتربوا أكثر .. تلك بلدة كتبت حكاياتها على الطين المفخور .. وهذه بلدة لا تزال تكتب حكاياتها على رقائق الليزر .. عبد الله الناصح . كان أول من نسج حكايات البلدة الغابرة وحدد ملامحها، (لقب بالناصح، لأنه جعل النصيحة سداة حكاياته) . وعبد الله الغياث ـــ الذي انحدر من سلالته —كان أخر من روى حكايات البلدة المعاصرة (لقب بالغياث، لأنه أغاث المستضعفين بحكايات الصبر) بلدتان يا سادة ما بين الناصح،والغياث، بلدة،هرمت، وتلفعت بغضون الأرض، وبلدة يطفح الشوق في وجهها،وتحمر كلما غازلتها عيون الشفق .. يصف رق بخط الناصح، توهج وانطفاء بلدة ترقد الآن تحت التراب . (الرق مكتوب بريشة طائر منقرض، ولا يعرف كنه مداده) يقول الناصح:(بسيف واحد، وفرس واحدة، وفارس واحد .. تولد بلدة ثم تتشظى فتولد بلدان من بين صهيل الخيل ولمعان السيوف، وازيز الرماح وإقدام الشجعان .. وكما تهيج السنابل وتتكسر تحت الحوافر . تشيخ البلدان وتداس بحوافر الزمن .. البلدة البتول التي قبلت أديمها شفتا النهر، وداعبت خضرتها أنامل نسيم الشمال ، اضطجعت على بساط الخصب، مخضبة بحناء الغرين،بعدما أسكرتها رائحة الحقول، لتغفو في كلتها المنسوجة من ضوء الشمس . حالمة بفارسها الهابط من رحم الآلهة . يسرج طائر الفجر الأبلق ويردفها خلفه، طائرا بها، إلى صوامع الآلهة التي لا يدركها البصر، ولا تطأها أقدام العالم السفلي .. البلدة الفارعة ، غرست قدميها في برودة الرمال، وناشت بهامتها السمت الأزرق، فأبهرت بمفاتنها عيون السماء، وزينت معابدها أنصاب الأله. وتربع على عرشها الملوك وأحاط بخدرها الجيش، وأحبها الشعب.. بلدة معطاء، ولود مترعة بالطقوس والمعابد تلفظت بالحرف الآول، فأنطقت بملاحمها الحجر الصوان .. أعلنتها (الآنانكو)❖ أميرة البلدان، عظيمة الملك، قوية الجيش، طيبة الشعب .. عمدت بالنهر المقدس، وسميت (أوروك) فباركها (الآله ذو الهالات المشعة)❖ وأهدتها (البقرة الوحشية) ❖ غرسها الذي زرع بذرته في رحمها (لوكال باندا) كبير كهنة (كولاب) ❖ ابنها (كلكامش) الملك العظيم الشأن، العظيم الخلقة الشاكي السلاح، الذي فرشت (أيا)❖ طريقه بالنور .. ذلك الجبار الذي لا ينضب ما يمنيه في الأرحام .. حلم عذارى البلدة اللاتي ناءت أجسادهن بثقل جسده وهو يهصر أضلاعهن على فراش من ريش مقدس، باركته الآلهة وفرشه الكهنة .. ذلك الشجاع الذي قهر (غول الغابات)❖ بذراع اله، كسر قرونه، وخلع جناحيه .. كان يخفق خلف أضلاعه، قلب إنسان لم يستطع هضم موت صديق، وتمكنت منه دابة من دواب الأرض . ناعمة، زاحفة لا تملك اذرعا" ولا سيقانا"، سرقت عشبته وتركته حاسرا في دار الفناء . وصارت تبدل ثوبها كل عام .. أيقن انه صائر إلى مصير صديقه . فبنى سورا يقي بلدته شر الأعداء .. اعتصمت البلدة بعده بالسور حتى داهمتها خيول الدهر، فتهدم السور، الذي امتص آخر قطرة عرق في جبين (الأوروكيين)❖ كاشفا" تجاعيد البلدة لعيون الأفق .. احدودبت الأرض، وانحسر النهر كاشفا" أ سنمة من التلال، تركبها الشمس كل غروب . تقوضت أعمدة المعابد فهشمت السقوف رؤوس الكهنة، وطمرت أجداثهم .. انتفخت أوداج الصحراء، فطمت الرمال تيجان الملوك وأسرار الملكات، وعطور الأميرات ، وخزانات الكنوز، وغرف الجواري، ومخادع العبيد، وفضائح السادة .. الكل التهم التراب، وتوسد التراب، وتدثر بالتراب وتحول إلى تراب .. اندثرت حكمة الأسلاف تحت غبار الزمن، وتلفع السور بعباءة الدهر، صار وكرا للبوم ، بعدما كان وكرا للديدبان .. انسابت من جحوره الزواحف، ولاذت في ثغورة الذئاب، وتمترس الجن خلف بقاياه .. حقب مرت وحقب، تهافتت على إطلال البلدة قوافل الغربان تهافت الذباب على أكوام التمر، هجموا على ما تبقى من السور، وأشبعوه ضربا بالمعاول، نبشوا المقابر بالمساحي، والمدى، والأظافر .. مزقوا أكفان الموتى من الملوك والكهنة والجند والعبيد والجواري .. حملوا تماثيلهم، ومسلاتهم وكنوزهم، وأسلحتهم، وأوانيهم، وصلبوها في كبرى المتاحف، ترشقها أعين الذين لا يملكون جذورا لحكاياتهم بسهام الفضول .. أفترس الغرباء ملاحم الأسلاف فكوا طلاسم الخط، سرقوا الحكمة، وأعادوا ما تبقى أكواما من الطين المشوي .. الشيء الوحيد الذي لم يستطيعوا أن يسرقوه هو كتب الحكايات التي خطها يراع الآلهة

ورتلتها السنة الكهنة ُفشربتها صدور الرواة ﴾ هذا ما كتبه عبد الله الناصح عن بلدة غابرة .. أما ما ذكره عبد الله الغياث عن البلدة المعاصرة (رواه ولم يكتبه) قال (البلدة كانت قبل إن تصبح بلدة، أرضا جرداء، قاحلة، لم يطأها عارض، ولا وابل، ولا مزن حتى يئس منها الطير، وتلمض في هاجرتها لسان السراب .. هكذا كانت مهجورة، منسية، موحشة، لا خفقة لجناح، ولا وشم لحافر ولا اثر لنعال، لا علامة لحياة حتى إذا ضاجع النهر المتقهقر الأرض البكر، امتصت وهي العطشى الماء الدافق الذي قذفة في رحمها، فاهتزت، وربت واكتست ثيابا خضرا من سندس، أفرحت الشمس التي أبصرت رؤيا (الموبذان)❖ تستهل بخيل المثنى بن حارثة الشيباني وهي تخب على تراب (أليس)❖ .. حطت أول قافلة رحلها قرب المولودة الجديدة .. نصبت بيوت الشعر، فرشت الأزر، أوقدت الكوانين، نحرت الاكباش، وضعت القدور على الاثافي .. فانعطفت القوافل التي أنست نارا، وأراحت ركابها في أول محطة للقوافل التي تغتدي ، وتروح ما بين الكوفة والبصرة .. ترعرعت (أليس) ما بين النهر والصحراء، كبرت، وتسربلت بنور الإسلام فاقتربت من السماء، سامية، بأهلها، وضرعها . نحو أله السماء (سموي) واغتسلت بالفرات وعرفت (بالسماوة) وفي باديتها أطلق (الشاعر) الذي ملأ الدنيا، وشغل الناس قصيدته الأولى وهو ينزل من رحم أمه .. بعد حين من الدهر، نصبت الصرائف والأكواخ . ثم شيدت بيوت الطين .. صدحت حناجر الحادين بالحداء، اهتزت أوتار الربابات بالمواويل، بزغت قبور السادة والأولياء مخضبة بالحناء، مترعة بالنذور، معفرة بالطيب، مبللة بماء الورد، مضببة بدخان المباخر، مضاءة بالشموع .. خفقت رايات العشائر، أشرعت مآذن الجوامع حلقت الأدعية صاعدة إلى سماء تمنح الدفء والسكينة، والأمان من ارض تنبت الأيمان، والخشوع، والابتهال .. امتلأت القلوب بالآمال، والمواقد بالحطب، والدلال بالقهوة والأكياس بالتبغ والمضايف بالضيوف .. التهمت نيران الكوانين عباءة الليل .. وأضيئت للسمار فوانيس الدواوين .. اعتلى الرواة صهوات الليل، اللسان يرث اللسان، وحكايات البلدة تتناسل في مخيلة رواتها، تغيرت البلدة من حال إلى حال ... لبست ثيابا، ونزعت ثياباً .. شطرها سيف الحق إلى نصفين راسما الحد الفاصل بين الأغنياء، والفقراء . استباحها القحط، وفتكت بها الأوبئة، تمرد عليها النهر فأغرقها الفيضان .. أحتلها الأتراك، فافترس دود القبور ثلة من السادة وثلة من العبيد، وولدت الأرض ثلة من السادة وثلة من العبيد .. تعاقب على الآخذ بزمام البلدة رؤساء العشائر، وبقيت هي ناقة الصحراء الجلدة الصابرة .. حتى إذا أدركت القرن العشرين، امتدت، وارتفعت بشرا، وأرضا، ودورا، وبساتين .. أورقت الأشجار، تفتحت الشقائق، رقصت السنابل، شمخ النخيل متدرعا" بالكرب، متلفعا" بالليف، مدججا" بالسعف، متوجا" بالرطب .. ارتاح النهر من عنائه، نصب أرجوحته بين شطري البلدة، وبسط ذراعين موشومتين بالغرب، والصفصاف، والسدر ، واليوكالبتوس .. وكما ضج ليل البلدة بأصوات الوحوش في الأدغال، والأجمات ضج نهارها بأصوات الباعة، والنخاسين، والمغنين، والخطباء، والشعراء، .. راجت بضاعة الكلام في المجالس والدواوين تخصرت الدلال بالحكايات، وتزنرت بها الفناجين وأذن مؤذن محرضا" الناس .. هلموا .. هلموا إلى أميرة البدو والحضر ابنة النهر الخالد، سليلة بلدة الأسلاف فتزاحمت القوافل على أبواب البلدة وأحاطت بسورها، نصبت على أديمها السرادق، وديست الدروب الموحشة التي لم تعد موحشة وطأتها أقدام أبن آدم، واخفاف الإبل، وحوافر الخيل والحمير، والبغال وأظلاف الأغنام، والماعز، والبقر .. غطست في مياه نهرها الجواميس، وسبح البط والوز والخضيري ودجاج الماء .. توافدت على شواطئها وفود النوارس، وحطت على مآذنها اللقالق وضجت أجرافها بعقعقة العقاعق.. امتلأت باديأتها بالفيضان والعشب والكمأ فهوت إليها قلوب الأرانب والغزلان والحبارى والحجل تطاردها الصقور العراقية، والكلاب السلوقية، وذلول النوق، وعيون الصيادين لتطالها البنادق الكسرية . حطت على رواقمها النسور، ولاذت بمغاراتها الذئاب والضباع واختبأت في جحورها الأفاعي .. سجرت التنانير بالسعف اليابس وأقراص السرجين الجافة لتطرح خبز القمح، وخبز الشعير . أضيئت اللالات والفوانيس واللوكسات لتبدد عطش الليل وتهدي الوافدين، وتعشي عيون الذئاب وبنات آوى والخنازير فانقرضت أقوام الجن، ولجأت العفاريت إلى إطلال بلدة الأسلاف .. أصبحت البلدة مركزا لنقل زوار العتبات المقدسة في النجف وكربلاء .. دخلتها السيارات وامتدت على أرضها سكك الحديد، وصوت في فضائها القطاران الصاعد شمالا إلى بغداد والنازل جنوبا إلى البصرة .. في عشرين القرن العشرين جاء الإنكليز بالمدافع والطائرات يدفعون أمامهم قطعان الهنود والسيخ، فأشعلت (جذاذة الليرات العشر) التي أوقدها (شعلان أبو الجون) شرارة الثورة، واسكت (المكوار)❖ لسان المدفع .. وانغرزت (الفالة❖) في أحشاء المحتلين وظلت أهازيج (المهوال❖) خالدة على ألسنة أبناء العشائر .. أعوام مرت .. ومرت أعوام، والبلدة في مد وجزر بين العافية والاعتلال، لحس لسان المال اذرع المحتاجين، فانتفخت بطون وضمرت بطون . واقبل الناس على العرافين والحكماء يتساءلون فقال العرافون وأيد كلامهم الحكماء وارتاح لجوابهم الحاكمون (انتظروا ذلك الرجل الذي بصره حديد يأتي في عام لا مثيل له من الأعوام، وشهر لا يشبه هذه الشهور، ويوم لا يتكرر في الأيام، وساعة غير متوقعة من بين الساعات، ولحظة ليست كاللحظات) فحير الجواب نساء البلدة ورجالها، أغنياءها وفقراءها، اذكياءها وأغبياءها (ترى من هم سعداء الحظ الذين قدر لهم إن يدركوا ذلك الرجل ويروه . ؟ أهم من الخاصة ؟ أم من العامة .؟ من أولئك الأعيان الباذلين العطاء للسحرة والدجالين، ؟ أم من هؤلاء المستضعفين الذين لا يملكون غير عرق الجبين وخبز الكفاف ؟) وتطلع الأعيان إلى أبنائهم وأبناء أبنائهم وتطلع المستضعفون إلى أبنائهم وأبناء أبنائهم، كل ينتظر وجذوة الانتظار ترقد تحت رماد السنين والأيام والساعات . الآمال في الصدور، والعيون في الأفاق . لعل معجزة ما سترفع الغطاء فيرى الذي كتب له إن يرى في لحظة من لحظات البصيرة ما خفي من أسرار البلدة وينشرها للريح والشمس والعيون ﴿ .. قرأتم معي رق الناصح، واستمعتم لما رواه الغياث (الغياث هو جدي الثاني هكذا ورد تسلسله في شجرة العائلة الأجداد يهلكهم الدهر فيرحلون . كل جد يسلم حكايته إلى الجد الذي يأتي بعده حتى جدي الأول الذي ترك لي هذا الإرث الشفاهي الأصيل .. أني أراه الآن بذاكرة متوهجه . نصف عار يرقد في حجرته الطينية على سرير من جريد النخل ملتصق العينين بالسقف، ملتصق الجسد بالفراش، ملتصق الجلد بالعظم .. شاحب الوجه، ساكنه، مفتوح الفم، بصمت يروي آخر حكايته .. أبصرت في الشعر الأشيب المنتشر على صدره المكشوف انتشار الملح على ارض بركة جافة، كتاب الحكايات مفتوحا على آماد الرواة الآتين . أيقنت أني أرثه، عريت صدري وألقيت نفسي إلى بركة الملح، احتضنت صدر جدي، فشربت مساماتي تلك الحكايات التي ظلت تنتقل من صدر إلى صدر حتى وصلت إلى صدري . إنا الوريث الشرعي .. انظروا خبأتها هنا خلف أضلاعي، وبقيت انتظر لأعلنها على الملأ .. أسرجت صهوة الليالي، وألجمتها، وتهيأت لاصطياد الرؤيا .. جبت بر الآمال .. نثرت الأمل في ليالي الصيف وحصدت اليأس في ليالي الشتاء . أبحرت في بحر الليالي كل ليلة أغير طعمي والقي بصنارتي واصحو على سلة فارغة .. رحلت ليال، وجاءت ليال . طال انتظاري . أوشكت أن انتزع فكرة الرؤيا من رأسي لولا تلك الليلة التي لا تتكرر في الليالي، ليلة جمعت صهد الصيف وزمهرير الشتاء .. كانت الحمى تزرع النار في أحشائي وكان البرد يزرع الصمت في الحديقة . أبصرت وجها يلتصق بالزجاج البارد يملأ مستطيل النافذة .. جبين عريض مغضن، عينان لا تطرفان، لحية كغرة النهار .. ذلك وجه اعرفه . هو اصل شجرة الرواة . هو عبد الله الناصح لا غيره .. ركضت إليه . فتحت النافذة، فانسل رقيقا كالنسمة شفافا كالضوء .. أطفا شواظ رأسي بأنامل صاقعة .. توجني حكايات ومضى تاركا بصمات أقدامه الحافية فوق العشب الندي .....

هوامش :

١- الانا نكو: الآلهة السومرية العظام الذين يديرون الكون .
٢-الاله ذ و الهالات المشعه : هو الاله شمش
٣- البقرة الوحشية : هي الاله ننسون .
٤- كولاب : هو القسم الذي يقع فيه المعبد
٥- ايا : تمثل الفجر عند الرافدينيين .
٦- غول الغابات : هو خمبابا .
٧- الاوركيون : نسبة إلى أوروك .
٨- الموبذان : هو العراف الذي تنبأ لكسرى بزوال ملكه .
٩- أليس : هو الاسم القديم لمدينة السماوة
١٠- الشاعر الذي ملا الدنيا وشغل الناس : هو أبو الطيب المتنبي .
١١-جذاذة الليرات العشر : ورقة صغيرة كتبها شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم وبعث بها من سجنه في مخفر الرميثة إلى عشيرته يطلب فيها عشر ليرات كناية عن عشرة رجال شجعان هجموا على السجن وخلصوه هو ومن معه — وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الاولى التي اشعلت الثورة في ٣ حزيران ١٩٢٠ .
١٢- المكوار : هو عصا في راسها كورة من القار .
١٣- الفالة : هي قصبة يثبت براسها كف باصابع من حديد تستخدم في صيد السمك .
١٤- المهوال : شاعر شعبي يرتجل الاهازيج (الهوسات) ليثير حمية الرجال ويحثهم على القتال .